تطوّر نظام الطّبّ النّباتي في مدينة فاس

Independent Study Project: Fez, Morocco 2016

Miriam Rachel Hicklin

Supervised by Dr. Taoufik El Ayachi

مقدّمة عامّة

من المعروف أنّ مدينة فاس المغربية هي مدينة العلم والعرفان والتّبادل الثّقافي ونظام طبّها النّباتي يعطينا صورة واضحة عن ذلك. عندما نتكلم عن الطّبّ النّباتي نركّز بصفّة عامّة على الطّبّ التّقليدي الذي يوجد في معظم الثّقافات وفيه نرى منافع ومزايا الأعشاب الطّبّية وفي نفس الوقت فلسفة لصحّة الإنسان من كل الجوانب سواء الجسدية أو الرّوحانية أو العقلية. سنركّز في هذا البحث على تاريخ الطّبّ الفاسي وذلك بالنّظر إلى تاريخ المدينة بصفّة عامّة ودور الأحداث التّاريخية والخصائص المميزة في تطوّر الطّبّ النّباتي الفاسي. من خلال هذا التّاريخ سنتطرّق لأسواق هذه المدينة التي اشتهرت بتخصّصها في الأعشاب الطّبّية و سنتطرّق كذلك لمزاولة هذه المهنة و كذلك لوظيفة الطب الفاسي الاجتماعية و سنرى أيضًا الإنتاج الأدبي الذي تزامن نع هذا التّطوّر خاصّة من خلال عمل طبيب فاسي قدير، الوزير الغساني.

سأذكر في هذا البحث بعض السّلالات الرّئيسة في تاريخ فاس بصفّة خاصّة و في المغرب بصفّة عامّة. (كل هذه التّواريخ ستكون مرتبة وقف التّقويم الهجري)[1]:

الأدارسة: ١٧٣-٣٧٥

المرابطون: ٤٤٨-٥٤١

الموحدون: ٥٤١-٦٦٨

المرينيون: ٥٩١-٨٧٥

السّعديون: ٩٦١-١٠٦٩

العلويون: ١٠٧٦-الآن

الجزء الأول: أسس الطّبّ النّباتي الفاسي

الاختلافات العرقية ودورها في تطوّر الطّبّ النّباتي بفاس

بُني الطّبّ النّباتي بفاس على أساس الاختلافات العرقية خلال فترة الأدارسة (١٧٣-٣٧٥). فقبل وصول المولي إدريس الأول إلى المغرب، يعني قبل وصول الإسلام إلى المنطقة، لم يكن يوجد أي دليل واضح لنظام مدني محض. كانت السّاكنة أنذاك تتكون من الأمازيغ (البربر) وعدد كبير من اليهود، مع العلم أنّه بحكم اختلاط هذين العرقين اعتنق بعض

[1] http://www.arab-ency.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AD%D9%88%D8%AB/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D8%B3%D8%A9

الأمازيغ اليهودية. و في تلك الحقبة كانت مدينة وليلي الرّومانية تحت حكم القبيلة الأمازيغية المعروفة باسم "الأوربة", لقائدهم عبد الحميد الأوربي و الذي زوج ابنته كنزة للمولى ادريس الأول و الذي كان هو و أتباعه من مريدي فلسفة المعتزلة[2] التي جاءت بالمهاجرين المبكرين من الشّرق خمسون عامًا بعد وفاة الرّسول محمّد[3]. و مع أنّ الوثنية كانت نظام الاعتقاد الأصلي في المنطقة إلا أنّ معظم السّكان حولها كانوا مريدين الأديان متعددة كالمسيحية و اليهودية. في هذا السياة، حافظ السّكان على معرفة متخصّصة بأرضهم و خصائصها و على معرفة النّباتات المختلفة و كيفية استعمالها لعلاجات متعددة كعادة من عادات سكان المنطقة[4]. و قد وجد كذلك الطّب النبوي الإسلامي عن طريق المهاجرين الأندلسي و هكذا ثمّ امتزج الطّبّ النّباتي الأمازيغي بالطّبّ النّبوي ومنه ولِد الطّبّ التّقليدي الخاصّ الذي طوره أطبّاء مدينة فاس. من المهم أنْ نذكر هنا أنّ الدّولتين المرابطية الموحدية كانتا سلالتين أمازيغيتين وخلال هذه الفترة (٤٤٨-٦٦٨) اختلطت المعرفة الإسلامية والعربية بالمعرفة والثّقافة الأمازيغية. و خلال هذا العصر أيضًا تطوّرت فاس من النّاحية الإقتصادية وأصبحت تنافس المدن الأندلسية الأخرى. كما أنّه خلال هذه الفترة أيْ في عهد الموحدين أصبحت القرويين جامعة دولية[5].

لا يفوتنا هنا أنْ نذكر الدّور الذي لعبه المجتمع اليهودي المغربي لكي نفهم جيّدا جذور الطّبّ النّباتي الفاسي. لقد كان هناك كثير من اليهود الأندلسيين الذين هاجروا إلى المغرب خلال سقوط الأندلس سنة ١٤٩٢، كما كانت هناك أيضًا مجموعة من اليهود الذين سكنوا المغرب قبل وصول الإسلام إلى المنطقة. نستدل هنا بما قاله هايم زعفراني عن المهاجرين اليهود من الأندلس[6]:

> "Les juifs de ce pays commencèrent leur mouvement de reflux, bien avant les évènements tragiques de 1391, vers les terres maghrébines, désormais plus hospitalières, que leurs ancêtres avaient quittes, quelques siècles auparavant, sur les pas des conquérants musulmans[7]"

---

[2] "Idris I" **Encyclopaedia of Islam, Second Edition.** Edited by: P. Bearman et al.

[3] إكلمان، ديل. **الإسلام في المغرب، الطبعة الأولى** ص ١٩

[4] بامي، جمال. **المعرفة النباتية و الطبية بالمغرب بين التراث العلمي و العلاج التقليدي دراسة تاريخية أنثربولوجية** (http://www.alihyaa.ma/Article.aspx?C=5768)

[5] Ibid

[6] Zafrani, Haim. **Le Judaisme Maghrebin, Le Maroc: Terre des rencontres, des cultures et des civilisations** p. 55

[7] بدأ اليهود رجوعهم قبل الأحداث المؤلمة في ١٣٩١ إلى المغرب الذي كان أحسن استقبالهم و منه هجر أسلافهم منذ بضعة قرون على خطى الفاتحين المسلمين

يلاحظ هايم زعفراني أنّ اليهود الأندلسيين رجعوا إلى بلادهم الأصلية بعد سقوط غرناطة فعودة هذا العدد الكبير من المهاجرين إلى المغرب يعني أنّه كانت هناك مجموعات يهودية مستقرّة في المغرب قبل وصول الإسلام. و مثل المسلمين، كان عند اليهود حضارة متطوّرة و خصوصًا في ميداني العلوم و الطّبّ[8]. وكما سنرى من خلال كتابات الوزير الغساني (٩٥٥-١٠١٩) , فبالإضافة إلى الطّبّ النّبوي و تأثيره كان للطبّ اليهودي أيضًا أثر كبير على الطّبّ الفاسي، و امتدّ هذا التأثير ليشمل التعليم في جامعة القرويين و تأسيس سوقي العشّابين و العطّارين.

كما ذكرنا سابقا، تطوّر المغرب إلى بلاد المعرفة و العلوم مع وصول الإسلام. فأصل الطّبّ الفاسي الرّئيس هو الطّبّ النّبوي الذي جاء مع المسلمين و القرآن. لقد أعطى الإسلام أهمية خاصّة لدراسة و تطوّر الطّبّ في جامعاته و مدارسه. فبعد أنْ جاء المهاجرين المشرقيين إلى شمال إفريقيا خمسين عامًا بعد وفاة الرّسول و استقرّ معظمهم في منطقة تونس، أسّس الإمام إدريس بن إدريس مدينة فاس في ربيع الأول سنة ١٩٢ هجرية ونزل بها بعض من المهاجرين من تونس، خصوصًا في عدوة القرويين (عدد كبير منهم كان من مدينة القيروان بتونس). و مع تأسيس جامعة القرويين، تطوّرت الدّراسة والتّعليم بفاس بشكل كبير و كان الطّبّ من أهم مجالاتها. مع جذوره في الطّبّ النّبوي الذي جاء في أحاديث الرّسول، كانت عند هذا الطّبّ مصادر مكتوبة وواضحة وخصائص علمية و روحانية.

نرى جليا أصول الطّبّ النّبوي في القرآن وأحاديث النّبي. من المعروف في المغرب مثلًا أنّ من بين أسس الطّبّ النّبوي العسل و البصل و الثّوم، و كلها ذكرت في القرآن. جاء في سورة البقرة هذه الآية[9]:

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ..."

هناك أيضًا الحبة السّوداء و التي أشار اليها النّبي في هذا الحديث:

"حدثنا محمد بن رمح ومحمد بن الحارث المصريان قالا حدثنا الليث بن سعد عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب أن أبا هريرة أخبرهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام" والسام: الموت والحبة السوداء: الشونيز (البخاري و مسلم)"

---

[8] Ibid

[9] القرآن ٢:٦١

و هكذا يظهر لنا جليًا أنّه رغم أهمية الطّبّ الأمازيغي واليهودي، من إنصاف القول أنّ أصل الطّبّ التّقليدي الفاسي الرّئيس هو الطّبّ النّبوي العربي. كدليل إضافي سنركز في ما يلي على تأثير القرويين والأندلس على الطّبّ الفاسي.

أهمية القرويين

من الواضح أنّه كان لجامعة القرويين دور مهم و رئيس في تاريخ مدينة فاس و تطوّرها. و في هذا الصّدد يقول إدريس العلوي العبدلاوي في "دليل جامعة القرويين"[10]:

"التقدّم الاقتصادي والاجتماعي مرتبط ارتباطا وثيقا بتقدّم العلم والتعليم في فاس"

لقد كانت جامعة القرويين مركز التعليم الرّئيس في فاس وحافزاً لتطوّر العلوم وحضارتها بصفّة عامّة. ففي عصر الإمام يحيى بن محمّد بن إدريس (المتوفّى سنة ٢٣٤) نزل بفاس عدد كبير من العرب من أهل القيروان. و كان من بينهم امرأة عرفت باسم فاطمة الفهرية، بنت تاجر تونسي غني. بعد وفاة أبيها وهبت إرثها لبناء الجامعة في قلب عدوة اليمين بفاس، و في شهر رمضان سنة ٢٤٥ تمّ بناء جامعة القرويين. و في القرن الخامس الهجري حقّقت جامعة القرويين مستوى علمي عالمي عال و بذلك أصبحت جامعة عالمية[11] يقصدها المسلمون من كل مكان. درّس علماء الجامعة كثير من المواضيع كما يقول العلوي في "دليل جامعة القرويين":

"و كان لعلماء القرويين داخل أبهاء بنايتها و خارجها اهتمام بكل العلوم... من رياضيات وطب و موسيقى..."[12]

كانت جامعة القرويين مؤسّسة إسلامية عربية وكانت في ذلك الوقت من أهمّ المؤسّسات الإسلامية في الغرب الإسلامي. و بما أنّ الطّبّ قد دُرّس فيها، فمن نافل القول أنّ الطّبّ العربي الإسلامي كان موجودًا كذلك، رغم أنّ هناك بعض إشارات عن إمكانية التّأثير من مصادر أخرى، مثل الطّبّ اليهودي. عندما سألتُ العالم الشيخ الفاسي الفهري و هو من علماء القرويين الحاليين عن نظام الدّراسة في جامعة القرويين قال إنّ في العصر المتوسط درّس علماء القرويين بنظام الكراسي

---

[10] العلوي العبدلاوي، إدريس. **دليل جامعة القرويين** ص ٥٨

[11] بامي، جمال. **المعرفة النباتية...**

[12] العلوي العبدلاوي، إدريس. ص ٥٨

العلمية، و كل يوم يتمّ الصّف بجانب واحد من أعمدة المسجد، و كان الصّف مفتوح للعامة. و إلى يومنا هذا ما زال هذا النّظام موجودًا و ما زالت هذه الصّفوف فرصة للناس لكي يتعرفوا على العلوم خصوصًا بالنّسبة للحرفيين و التّجار الذين يعملون بالقرب من المسجد. كان للعلم و المعرفة مكانة مهمة جدًّا حتّى أنّ بعض الأطباء في سوق العطّارين كانوا يرسلون تلاميذهم إلى هذه الصّفوف و لذلك أدّى قرب الجامعة من السّوق إلى علاقة حميمة بينهما.

و هكذا نهج تعليم الطّبّ في جامعة القرويين سياق الفلسفة الإسلامية في نقل المعرفة و نظام التّعليم و التّعلّم. و كان من بين المبادئ الرّئيسية لهذا النظام، نظام التّعليم المرتكز على العلاقة بين المعلم و التّلميذ. كما اعتبر أبو حامد الغزالي أنّ كل معرفة تؤسّس على نظام التّمهن مقدّسة[13]. بلْ أنّ وسيلة تنزيل القرآن و بعد ذلك تعليم الرّسول محمّد صحابه تمثّل هذا النّظام. من النّاحية النّظرية هي معرفة مقدّسة بسبب التّفاعل الإنساني الذي يحتاج إليه هذا النّظام لأنّه ينقل المعرفة من جيل إلى جيل آخر. و يوجد تعليم الطّبّ داخل هذا النّظام. نجد في مقدّمة لابن خلدون مثلًا شرح للمعرفة المقدّسة في سياق الطّبّ بصفّة خاصّة[14]. يعتبر ابن خلدون مهنة الطّبّ "شريفة" لأنّها "حفظ لصحة الإنسان و دفع المرض عنه و يتفرّع عن علم الطّبيعة، و موضوعه مع ذلك بدن الإنسان"[15]. كما نلاحظ في الفلسفة الإسلامية التقليدية بصفّة عامّة، علوم الطّبيعة و علوم الدّين مستوحات من مصدر واحد و تتفاعل بينها بشكل طبيعي. و يبقي علم الطّبّ و ممارسته في جامعة القرويين خير مثال لهذا التّفاعل.

من ناحية نشاط جامعة القرويين العلمي أصبحت فاس كلها مدينة العلم و المعرفة كلها كما قال العلوي: "فقد كانت فاس كلها مدرسة علم بمكاتبها و مساجدها و جوامعها و مدارسها..."[16]. لذلك أثّر نشاط القرويين الجامعي على المدينة بأكملها و من بديهي القول هنا أنّ تعليم الطّبّ فيها أثر على تطوّر ممارسة الطّبّ في المدينة بصفّة عامّة و بشكل كبير. لا يقف تأثير القرويين على الطّبّ النّباتي بفاس إلى تعليم الطّبّ فيها فقط بل كما سنرى فيما بعد، للقرويين دور كبير في تأسيس سوقي العطّارين والعشّابين. كما قال العلوي، أثرت القرويين بصفّة عامّة على النّشاط الإقتصادي و التّجاري في كل المدينة ولكن تأثيرها على مهنة الطّبّ مدهش على وجه الخصوص. إذا درسنا خريطة المدينة فسنرى سوق العطّارين كواحد من أكبر وأقرب الأسواق إلى أبواب القرويين. يشير قرب السّوق إلى علاقة وطيدة بينه و بين القرويين. نلاحظ هنا جدوى نظرية بن خلدون التي تقول أنّ الحرف و التّجارة القريبة من المسجد تسمي تجارة شريفة بسبب قربها[17]. حسبما

---

[13] الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين الجزء الأول** ص ١٣

[14] ابن خلدون. ص ٣٢٨

[15] Ibid

[16] العلوي العبدلاوي، إدريس. **دليل جامعة القرويين** ص ٢٣

[17] ابن خلدون. **المقدمة** ص ٣٢٠

يقول بنعبدالله[18] في مقالته، يبدو واضحًا أنّ وجود القرويين كان واحدًا من أهم المأثيرات على الطّبّ الفاسي و علاوة على ذلك كان هذا التأثير اقتصاديًا، علميًا و جغرافيًا.

أهمية الأندلس

قبل أنْ نرى أمثلة دقيقة عن تاريخ الطّبّ الفاسي، من اللّازم أنْ نفهم تأثير الحضارة الأندلسية فيه. دخلت موجتان مهمتان من المهاجرين إلى المغرب أولًا خلال عهد الأدارسة و ثانيًا خلال انهيار الأندلس. أثّرت هذه الجاليات على المجتمع الفاسي بشكل كبير وخصوصًا على الحرف والتّجارة كما سنلاحظ في سياق الطّبّ.

كانت الهجرة الأولى من الأندلس إلى فاس و الهجرة الثّانية من قرطبة إلى عدوة اليمين بفاس في زمن المولى إدريس الثّاني حيث بنى الأندلسيون ٨٠٠٠ بيت على ضفّة اليمين لنهر الجواهر[19]. و من المعروف أيضاً أنّ هذه الجالية أثّرت على سياسة المدينة في هذا العهد، فقد كانت جالية واعية سياسيًا حافظت على علاقتها مع أرضها الأصلية[20]. أمّا بالنّسبة للطّبّ بفاس، نلاحظ تأثير آخر للحضارة الأندلسية وهو تبادل الحرفيين والصّناع والعلماء. فخلال عهد الأدارسة استقبل المغرب عدد من الصّناع والحرفيين الأندلسيين لكي يطوّروا المدينة لتصبح في نفس مستوى المدن الأندلسية. في ذلك العصر بُنيت جامعة الأندلس على ضفّة اليمين كمرآة لجامعة القرويين على الجانب الآخر من الضّفّة.

و في زمن الموحدين (٥٤١-٦٦٨) أصبح التّفاعل أوسع في مجال العلوم بين الأندلس و المغرب. كما قال رزوق:

"تواصل المد الحضاري الأندلسي بالمغرب بفضل استمرار هجرة عدد كبير من الأندلسيين من مختلف الفئات: علماء و أدباء و أطباء"[21]

في سياق التّعليم كانت بلاد الأندلس متطوّرة أكثر من المغرب كما قال ابن خلدون "أما أهل المغرب فمذهبهم في الميدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط[22]" فأما الأندلس دُرّس الأطفال فيها كل العلوم. على هذا الأساس بُنيت العلوم الأندلسية

[18] بنعبد الله، عبد العزيز. **كيف تطور الطب و الصيدلة بالمغرب** http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/(adad27partie11.htm)

[19] رزوق، محمد. **الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب** ص ٢٨

[20] Ibid

[21] رزوق، محمد. **الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب** ص ٣٧

[22] ابن خلدون. **المقدمة** ص ٤٩٤-٤٩٥

وعلماءها. من بين الذين هاجروا إلى المغرب نذكر أبا الوليد بن رشد في مجال الطّبّ و الصّيدلة. و بسبب معرفتهم الكبيرة كان الأطباء الأندلسيين مفضلين من طرف السّلطان[23]:

"حمل الأندلسيون من ذلك ما أحيى دماء الدراسات الطبية والصيدلية بالمغرب، و خاصة في فاس و مراكش، و قد قرّب الملوك السعوديون الأطباء الأندلسيين، و اتخذوا من بينهم طبيب القصر الخاص، و اغدقوا عليهم من الصلات، و المكافآت ما شجعهم على النشاط في علاج المرضى، و صنع الأدوية و تأليف الكتب."

من بين هذه الكتب سنرى عمل طبيب أندلسي فاسي من خلال كتابه المعروف باسم "حديقة الأزهار في ماهية العُشب و العقار" كمثال. كان الكاتب، الوزير الغساني، من أهل غرناطة ويُعتبر هذا الكتاب الوحيد من أهم الكتب التي كتبها عن الطّبّ النّباتي الفاسي.

امتد تأثير الحضارة الأندلسية على فاس بالانطباعات الدّقيقة على المعيشة الفاسية. كتاب "وصف إفريقيا" لحسن الوزان هو أيضاً من أهمّ كتب تاريخ فاس في العصور الوسطى و فيه قام الكاتب بوصف مفصّل لأسواق المدينة في القرن العاشر الهجري. يعرض لنا فيه دليل تأثير الأندلس على فاس[24] و بناءًا على حدوث التبادل الثقافي بين الأندلس و المغرب بسبب قرب الفندق اليهودي من سوق العطارين، يمكننا أنْ نتصور حدوث نفس التبادل بين المسلمين و اليهود. و كما رأينا سابقا، هاجر كثير من اليهود إلى المغرب بعد انهيار الأندلس و من المرجح أنّهم أثّروا على جيرانهم في سوق العطّارين.

و بصفّة عامّة يمكن تلخيص التطوّر التاريخي للطبّ الفاسي و أهمية الأندلس من خلال الخطّ الزمني التّالي:

---

[23] رزوق، محمد، ص ٢٧٤

[24] الوزان، حسن. **وصف إفريقية، الجزء الأول** ص ١٩١

192هـ

الأدارسة (١٧٣-٣٧٥)

وصل الأدارسة إلى منطقة فاس

الأدارسة

وصل مهاجرون من قرطبة

الأدارسة

وصل الحرفيون من الأندلس

الموحدون (٥٤١-٦٦٨)

وصل الأطبّاء من الأندلس

المرينيون (٥٩١-٨٧٥)

مستوى عالي التعليم في الأندلس و تفضيل السلطان المغربي للأطبّاء الأندلسيين

المرينيون - السعديون (٥٩١-١٠٦٩)

إنهيار الأندلس و حفاظ على الحضارة الطّبّية الأندلسية بفاس

1069ه

الوزير الغساني 955-1019

الجزء الثّاني: نماذج في الطّبّ النّباتي الفاسي

سوق العطّارين وسوق العشّابين

شكّل سوق العطّارين وسوق العشّابين قلب ممارسة الطّبّ و الصّيدلة طوال تاريخ فاس. توجد سوق العطّارين في نهاية شارع "الطّالعة الكبرى" الذي يُؤدي إلى جامعة القرويين، في وسط المدينة القديمة. و تقع السّوق بين بابين من خشب و إلى يومنا هذا ما زال الحال موجودًا. يوجد فيها تقريبا ١٥٠ دكّانًا وهي الآن أنواع مختلفة من الحوانيت، عدد قليل منها تبيع التّوابل و الأعشاب. يبدو أنّ تاريخ سوق العشّابين أقصر لأنّها لا توجد في تقرير حسن الوزان عن أسواق فاس في القرن العاشر الهجري. نلاحظ أنّها قريبة من سوق العطّارين و أكتفي بالقول بأنّه كانت هناك علاقة قريبة بينهما. خلال الوقت الذي كتب روجي لوطورنو "فاس قبل الحماية" (١٩٤٩)حافظت سوق العشّابين على النّشاط العلاجي في المدينة و غيُرت سوق العطّارين إلى سوق للتّوابل فقط[25].

و في هذا الصّدد من المهم أنْ نلاحظ موقع مدينة فاس من ناحية الزّراعة. كما قال لطورنو[26]:

> "فاس هي بطبيعة الحال مطمح أنظار سكان كثيفين إلى حد ما، متكاملي الموارد في الغالب. فهنا زراعة الحبوب، و هناك تربية المواشي و المنتجات الغابوية: هنا زراعات الربيع، و هناك زراعات الصيف."

الجدير بالذّكر هنا هو أنّ هذه الحالة أثّرت بشكل طبيعي على تجارة الأعشاب العلاجية و لا إجحاف اذا قلنا هنا إنّ الطّبّ النّباتي الفاسي تطوّر تطوّرًا كبيرًا بسببه. في تاريخ فاس أسّس تجّارها علاقات مع فلّاحي المنطقة المحيطة و تبادلوا المنتجات الزراعية و الأعشاب[27]. من المهم أيضاً أن نعلم أنّ تجّار الأعشاب اعفو من الضّرائب، ضريبة "المكس"، على الواردات إلى المدينة و هذا إنْ دلّ على شيء، فإنما يدلّ على أهمية العشب في معيشة المدينة[28].

---

[25] لطورنو، روجي. **فاس قبل الحماية، الجزء الأول** ص ٥٣٧

[26] لطورنو، ص ٦٠٢

[27] لطورنو، ص ٦٠٨

[28] Ibid

كانت سوق العطّارين في القرن العاشر الهجري مركزًا نشيطًا لممارسة الطّبّ و الصّيدلة بفاس. حيث كانت مكوّنة من مائة و خمسين دكّانًا ببابين و حارسين من كلتا الجهتين و في كل دكّان يعمل طبيب و مستخدمه[29]. يذكر الوزان أنّ الطّبّ في سوق العطّارين كان متخصصًا ولم تمارسه العامة، و يبدو أنّه كان في ذلك الوقت نظامًا مؤسّسًا لممارسة الطّبّ و الصّيدلة. جدير بالذّكر أيضا أنّ حسن الوزان كتب "وصف إفريقيا" في عصر ما بعد انهيار الأندلس[30]. فلا إجحاف إذن إذا قلنا إنّ الأندلسيين أثّروا على نشاط سوق العطّارين بشكل كبير كما أثّروا على النّشاط الإقتصادي في فاس بصفّة عامّة.

كما رأينا بالنّسبة للزّراعة ومدينة فاس، فقد أصبح نشاط المدينة الإقتصادي متطوّرًا في عصر ما قبل الاستعمار الفرنسي و معه تطورت ممارسة الطّبّ و تجارة العشب العلاجي. يبدو أن بين القرن العاشر و القرن الثالث عشر توسعت و انقسمت سوق العطّارين إلى ما هي عليه اليوم. فقد جاء عند لوطورنو أنّه كانت في هذه الفترة أسواق مختلفة للعشب[31] أهمها كانت سوق العشّابين:

> "كانوا هم صيادلة فاس الذين يبيعون كل أنواع الأعشاب و النباتات الطبية، في خمسة و عشرين أو ثلاثين دكانا[32]."

أما سوق العطّارين:

> "بائعو التوابل (العطارة)، المقيمون على كلا جانبي سوق العطارين. كانوا يبيعون التوابل، ولكن يبيعون أيضا الأقفال و المقصات، و اللعب و الكاغد، إلخ... ، محتلين مائة و خمسين دكانا[33]."

و لعلّ الأطباء فضلوا سوق العشّابين لممارستهم العملية، ولكننا لا نستطيع الجزم بذلك. نرى في نفس الوقت توسيع عام للمجال ويمكن أنّ يكون هذا التغيير جاء كنتيجة طبيعية للاختصاص. من دلائل هذا الرأي هناك وجود أسواق متخصصة

---

[29] الوزان، حسن ص ٢٤٣

[30] الوزان، حسن. **وصف إفريقية، الجزء الأول** ص ١٩١

[31] لطورنو، ص ٦٠٨

[32] لطورنو، روجي، ص ٥٣٥

[33] لطورنو، روجي، ص ٥٣٧

في عشب واحد و توجد في أماكن خاصّة في المدينة. منها كانت سوق العشّابين الصّغير الذي أسّست بجانب ضريح مولى إدريس الثّاني، يعني عشر دقائق مشياً على الأقدام من سوق العشّابين الكبير:

"كانوا يجاورون هنالك العشابين المتخصصين في بيع الفُشاغ (عشبة رومية)، و هو مُنَقٍ للدم يُستعمل كثيرا بفاس. كانوا يشكلون في ذلك الزقاق سوقا من نحو عشرة دكاكين، تسمى العشابين الصغير، و كان كل تاجر يحقق فيه من المبيعات اليومية ما يتراوح بين عشرين و خمسة و عشرين ريالا، و هو مبلغ باهظ بالنسبة لفاس."[34]

كان تجّار الأعشاب يحصلون على أجور عالية لعملهم، وهذا دليل على أهمية الطّبّ النّباتي بفاس في ذلك العهد. من خلال الإعفاء من الضّرائب، الأجور العالية، وتوسيع أسواقهم، يبدو أنّ الأطباء الفاسيين كانوا ناجحين وكانوا يحظون احترام و تقدير أهل فاس. و لهذا كان لهم دور رئيس في حضارة المدينة و هذا واضح بالنّظر إلى وجودهم المركزي و البارز في القلب الرّوحاني و الجغرافي لفاس.

الوزير الغساني: الطّبيب الفاسي الأندلسي القدير

يمثل عمل الوزير الغساني "حديقة الأزهار في ماهية العُشب و العقار" قمّة الطّبّ الفاسي و مثال حيّ لكل خصائصه المتميزة. أولًا، من اللّازم أنْ نلاحظ دوره كطبيب فاسي بشكل خاص. هناك دليل في عمله أنّه مارس الطّبّ في سوق العطّارين حيث أنّه قال "و هذا موجود عندنا في عطّارين[35]". جعل الطّبيب هذه النّقطة واضحة في كتابه، و هو يعطينا أمثلة من مدينة فاس في وصف الأعشاب:

"أمير باريس
تفسير الماهية: هو من جنس الشجر، و هو شجر البرباريس من نوع العوْسج، و يسمي بالبربرية آزرْغنت، و اسم لِحاء أصوله: آرْغيس، و هو اسم الشجرة بعينه - لغة البربر - كثيرا ما ينبت بجبال بني زينة و منها يُجلب لمدينة فاس.[36]"

---

[34] لطورنو، روجي، ص 678

[35] الغساني، أبو القاسم بن محمد بن ابرهيم. **حديقة الأزهار في ماهية العُشب و العقّار** ص ٧٦

[36] الغساني، أبو القاسم بن محمد بن ابرهيم ص ٨

توجد كثير من هذه الدلائل على وجود الأعشاب بفاس و محيطها الطّبيعي و منها يمكن لنا أنْ نفهم المنطقة جيدًا و أيضًا العلاقة بينها و الكاتب. نرى أيضًا في هذا المثال تأثير الطّبّ الأمازيغي على الطّبّ الفاسي، و خصائصه و امتيازاته. و هو أيضًا طبيب أندلسي و نرى في الكتاب كثيرًا من الدلائل على الحياة الأندلسية و أنواع طبّها كما توجد في النّص التّالي[37]:

"دادي

و هو كثير بأرض الأندلس بغرناطة و غيرها، و قد ذكره الفقيه عمر الزجّال كثيرا في أزجاله و غنى عليه و تغزل فيه بإشاره لجمال منظره و غرابة شكله و ملاحة نوره، لأجل هذا يُتخد في البساتين، يُعرف عندنا بفاس و بأرض الأندلس بديدي"

يعرض لنا الكاتب في هذا النّص دليل القرب بين أهل فاس و أهل الأندلس، و خصوصًا مدينة غرناطة. من المهم أنّ الغساني كان من أهل غرناطة الذين استقرّوا بفاس وقد عرف ثقافتها و خصائصها جيدًا. ذكر جمال بامي في مقالته تأثير الكاتب "أبي الخير الاشبيلي" على عمل الغساني وخصوصًا العلاقة بين كتابه "عمدة الطبيب في معرفة النّبات" و "حديقة الأزهار" للغساني. يؤكّد لنا هذا علاقة تأثير الأندلس على فكرته الطّبّية.

توجد أيضًا أهمية أنثروبولوجية في "حديقة الأزهار" حيث يصف لنا الكاتب الحضارة الفاسية وصفًا دقيقًا لمهنة الطّبّ في زمانه. هذه مهنة فيها نظام كلاسيكي للتعليم و التّعلّم بين المعلم و التّلميذ و قلبها روحاني إسلامي. توجد قيمة الكتاب الأنثروبولوجية في صورتها للعلاقات بين الأطباء و نظام ممارسة المهنة. يصوّر الكاتب ثقافة ممارسة الطّبّ كما نلاحظ في مشاركة والد الكاتب في المعرفة الطّبية آنذاك:

"أمير باريس

و لقد حدثني والدي - رحمه الله - أنه وقف عليه و رأى شجرته بموضع يقال له سُليلجو على مقربة من ضريح الولي الصالح سيدي يحيى بن بكار - رحمه الله[38]."

[37] الغساني، أبو القاسم بن محمد بن ابرهيم، ص ٨٤

[38] الغساني، أبو القاسم بن محمد بن ابرهيم، ص ٨

مُورست مهنة الطّبّ في حدود نظام نقل المعرفة بين المعلم و التلميذ و بصفّة خاصّة بين الوالد و الابن وفقًا لمبدأ المعرفة المقدّسة كما يصف الغزالي[39]. من المهم أيضًا أنْ نلاحظ المفردات الفاسية المتعددة في وصفه التي توجد في النّص التّالي. يوجد في كثير من أوصافه كلمات متعددة لعشب واحد كما يعرفها أهل فاس و هي ذات مغزى تاريخي لأنّها تعطينا فكرة من أهمية الأعشاب الطّبية بين الفاسيين و معرفتهم الدقيقة عنها. يوجد كثير من الأمثلة، كتالي:

"شونيز

و تسمي بالحبة السوداء، و هي المراد بقوله صلى الله عليه و سلم - "الحبة السوداء شفاء من كل داء". و تُعرف عند العامة بفاس بالسانوج[40]."

من المهم ملاحظة أنّ هذه الكلمة ما زالت متداولة في اللّهجة الفاسية اليوم. يشير هذا المثال أيضًا إلى أهمية الطّبّ النّبوي في الطّبّ الفاسي. كما يوجد دليل على أهمية الطّبّ الأمازيغي و يهودي (مثلًا في اسم نبتة "البقلة اليهودية") ولكن هذا لا ينفي اطلاقًا أهمية الطّبّ النّبوي، تأثير الإسلام و الثّقافة الإسلامية بصفة عامّة. نكتفي بالإشارة إلى أهمية هذا الكتاب كمثال لكل جذور الطّبّ الفاسي وخصائصه المتميزة، كل هذه الدلائل تعطينا فكرة عن أهميتها و عن الدّور الذي لعبته في طبّ الحضارة الفاسية.

خاتمة

يتألف الطّبّ الفاسي النّباتي من خليط من التّقاليد العلاجية وهو نتاج لطبيعة مدينة فاس، مدينة العلم الأولى، حيث تلتقي مجموعة من الثّقافات و العقليات لكي تشترك و تتعلم من بعضها البعض. في فاس, مهد الديانة الإسلامية في المغرب، يظهر لنا جليًا أنّ الطّبّ النّبوي يمثل واحدًا من المصادر الرّئيسة في طبّها، و بوجود جامعة القرويين تطوّرت المدينة و تطوّرت العلوم الطّبّية فيها بشكل كبير. لا يفوتنا أنْ نذكر تأثير الأندلس و أهمية الطّبّ النّباتي فيها و دور صحّة الإنسان في حضارتها. تعرض لنا أسواق الأعشاب الطّبّية صورة لهذه الحضارة كقلب نابض للصحّة والصّيدلة و ذلك من خلال وجودها في الوسط الجغرافي و الرّوحاني و الإقتصادي للمدينة. يمكن القول إنّ قمّة تطوّرها كانت في القرن العاشر الهجري بعد دخول الأندلسيين إليها ولكن المثير للدهشة هو أنّها ما زالت توجد اليوم في نفس المكان. لا مبالغة في القول إذا قيل في كتاب الوزير الغساني "حديقة الأزهار في ماهية العُشب و العقار" أنّ هذه الاسواق تمثّل قمّة

---

[39] الغزالي، أبو حامد، ص ١٣

[40] الغساني، أبو القاسم بن محمد بن ابرهيم، ص ٣٤٣

الإنتاج الأدبي للطبّ الفاسي و فيه نرى كل هذه الدلائل بشكل واضح و فريد خصوصًا عندما يصف الكتاب لنا الأعشاب التي كانت و مازالت متداولة و قيمتها الإجتماعية و الأنثروبولوجية.

الهوامش

1. إكلمان، ديل. **الإسلام في المغرب، الطبعة الأولى** ترجمة محمد أعفيف (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ١٩٨٩)
2. بامي، جمال. **المعرفة النباتية و الطبية بالمغرب بين التراث العلمي و العلاج التقليدي دراسة تاريخية أنثربولوجية** (http://www.alihyaa.ma/Article.aspx?C=5768)
3. بنعبد الله، عبد العزيز. **كيف تطور الطب و الصيدلة بالمغرب** (http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad27partie11.htm)
4. ابن خلدون. **المقدمة** (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٠)
5. رزوق، محمد. **الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب** (الدار البيضاء: افريقيا الشرق، ١٩٩١)
6. عمراني زريفي، عبير. **الطب في المغرب من بداية السعديين حتى فرض الحماية ١٩١٢** (http://anfasse.org/2012-07-03-21-58-09/2010-12-30-15-59-35/5459-1912)
7. العلوي العبدلاوي، إدريس. **دليل جامعة القرويين** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٠)
8. الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين الجزء الأول** (القاهرة: دار الغد الجديد، ٢٠١٤)
9. الغساني، أبو القاسم بن محمد بن ابرهيم. **حديقة الأزهار في ماهية العُشب و العقّار** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠)
10. لطورنو، روجي. **فاس قبل الحماية، الجزء الأول** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢)
11. الفاسي، علال. **الإمام إدريس، مؤسسة الدولة المغربية** (الرباط: شركة بابل للطباعة و النشر، ١٩٨٨)
12. الوزان، حسن. **وصف إفريقية، الجزء الأول** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣)
13. **مدينة فاس** (http://www.minculture.gov.ma/index.php/patrimoine/sites-et-monuments-classes/67-2010-01-10-22-36-46/2010-01-10-22-47-20/665-2010-01-20-13-51-39)
14. **الأدارسة** (http://www.arab-ency.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AD%D9%88%D8%AB/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D8%B3%D8%A9)

Bibliography

15. **Encyclopaedia of Islam, Second Edition.** Edited by: P. Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs. Brill Online, 2016. Reference. School of Oriental and African Studies (SOAS). 16 April 2016

First appeared online: 2012

First Print Edition: isbn: 9789004161214, 1960-2007

- al- Ḳarawiyyīn
- Idrīs I

- Fās
- al- Muwaḥḥidūn

16. Zafrani, Haim. **Le Judaisme Maghrebin, Le Maroc: Terre des rencontres, des cultures et des civilisations** (Rabat: Marsam, 2003)

Word Count: 3859